

معركة النهروان

الكاتب: د علي محمد الصلابي



1 - سبب المعركة:

كانت الشروط التي أخذها أمير المؤمنين علي على الخوارج أن لا يسفكوا دمًا ولا يروعوا آمنًا، ولا يقطعوا سبيلًا، وإذا ارتكبوا هذه المخالفات فقد نبذ إليهم الحرب، ونظرًا لأن الخوارج يكفرون من خالفهم ويستبيحون دمه وماله، فقد بدؤوا بسفك الدماء المحرمة في الإسلام، وقد تعددت الروايات في ارتكابهم المحظورات.

ومما صحَّ من هذه الروايات ما حدث به شاهد عيان كان من الخوارج، ثم تركهم؛ حيث قال: صحبت أصحاب النهر، ثم كرهت أمرهم، فكتمتهم خشية أن يقتلوني، فبينما أنا مع طائفة منهم، إذ أتينا على قرية وبيننا وبين القرية نهر، إذ خرج رجل من القرية مذعورًا يجر رداءه، فقالوا له: كأننا روعناك؟ قال: أجل، قالوا: لا روع لك، فقلت: والله يعرفوه ولم أعرفه، فقالوا: أنت ابن خباب صاحب رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قال: نعم، قالوا: عندك حديث تحدثناه عن أبيك عن النبي صلى الله عليه وسلم؟ قال: سمعته يقول: إنه سمع النبي صلى الله عليه وسلم ذكر فتنة فقال: «القاعد فيها خير من القائم، والقائم فيها خير من الماشي، والماشي فيها خير من الساعي، فإن أدركتك فكن عبد الله المقتول».

فأخذوه وسرية له معهم، فمر بعضهم على ثمرة ساقطة من نخلة، فأخذها فألقاها في فيه، فقال بعضهم: ثمرة معاهد فبم استحلتها؟ فألقاها من فيه، ثم مروا على خنزير فنفحه بعضهم بسيفه فقال بعضهم: خنزير معاهد فبم استحلتته؟ فقال عبد الله بن خباب: ألا أدلكم على ما هو أعظم عليكم حرمة

من هذا؟ قالوا: نعم، قال: أنا، ولكنهم قدموه إلى النهر فضربوا عنقه.

يقول الراوي: فرأيت دمه يسيل على الماء، كأنه شراك ماء اندفر بالماء حتى توارى عنهم، ثم دعوا بالسربة وهي حبل، فبقروا عما في بطنها. يقول الراوي: لم أصاحب قومًا هم أبغض إليّ صحبة منهم، حتى وجدت خلوة فانفلت. أثار هذا العمل الرعب بين الناس، وأظهر مدى إرهابهم ببقر بطن هذه المرأة وذبحهم عبد الله كما تذبح الشاة، ولم يكتفوا بهذا بل صاروا يهددون الناس قتلًا، حتى إن بعضهم استنكر عليهم هذا العمل قائلين: ويلكم! ما على هذا فارقنا عليًا.

بالرغم من فظاعة ما ارتكبه الخوارج من منكرات بشعة، لم يبادر أمير المؤمنين علي إلى قتالهم، بل أرسل إليهم أن يسلموا القتلة لإقامة الحد عليهم، فأجابوه بعناد واستكبار: كلنا قتلة، فسار إليهم بجيشه الذي قد أعده لقتال أهل الشام في شهر محرم من عام 38هـ، وعسكر على الضفة الغربية لنهر النهروان، والخوارج على الضفة الشرقية بحذاء مدينة النهروان.

2- تحريض أمير المؤمنين علي جيشه على القتال:

كان أمير المؤمنين علي رضي الله عنه يدرك أن هؤلاء القوم هم الخوارج الذين عناهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالمروق من الدين، لذلك أخذ يبحث أصحابه أثناء مسيرهم إليهم ويحرضهم على قتالهم، وكان لأحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم في الخوارج أثرها لدى الصحابة وأتباع أمير المؤمنين علي رضي الله عنه.

فقد كان رضي الله عنه يبحث جيشه على البدء بهؤلاء الخوارج، فقال: أيها الناس إنني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «يخرج قوم من أمتي

يقرؤون القرآن، ليس قراءتكم إلى قراءتهم بشيء، ولا صلاتكم إلى صلاتهم بشيء، ولا صيامكم إلى صيامهم بشيء، يقرؤون القرآن يحسبون أنه لهم وهو عليهم، لا تجاوز صلاتهم تراقيهم، يمرقون من الإسلام كما يمرق السهم من الرمية، لو يعلم الجيش الذي يصيبونهم ما قضى لهم على لسان نبيهم صلى الله عليه وسلم لا تكلوا عن العمل، وآية ذلك أن فيهم رجلاً له عضد وليس له ذراع، على رأس عضده مثل حلمة الثدي عليه شعيرات بيض» فتذهبون إلى معاوية وأهل الشام، وتتركون هؤلاء يخلفونكم في ذرايكم وأموالكم، والله إنني لأرجو أن يكونوا هؤلاء القوم، فإنهم قد سفكوا الدم الحرام، وأغاروا في سرح الناس، فسيروا على اسم الله.

وقال رضي الله عنه في يوم النهروان: أمرت بقتال المارقين، وهؤلاء المارقون.

وعسكر الجيش في مقابلة الخوارج يفصل بينهما نهر النهروان، وأمر جيشه أن لا يبدؤوا بالقتال حتى يجتاز الخوارج النهر غرباً، وأرسل علي رضي الله عنه رسله يناشدهم الله ويأمرهم أن يرجعوا، وأرسل إليهم البراء بن عازب رضي الله عنه يدعوهم ثلاثة أيام فأبوا، ولم تزل رسله تختلف إليهم حتى قتلوا رسله، واجتازوا النهر، وعندما بلغ الخوارج هذا الحد وقطعوا الأمل في كل محاولات الصلح وحفظ الدماء، ورفضوا عناداً واستكباراً العودة إلى الحق وأصرروا على القتال، قام أمير المؤمنين بترتيب الجيش، وتهيئته للقتال.

فجعل علي ميمينته حجر بن علي، وعلى الميسرة شيبث بن ربعي، ومعقل بن قيس الرياحي، وعلى الخيل أبا أيوب الأنصاري، وعلى الرجالة أبا قتادة الأنصاري، وعلى أهل المدينة وكانوا في سبعمئة قيس بن سعد بن عبادة، وأمر علي أبا أيوب الأنصاري أن يرفع راية أمان للخوارج ويقول لهم: من جاء إلى هذه الراية فهو آمن، ومن انصرف إلى الكوفة والمدائن فهو آمن، إنه لا حجة لنا فيكم إلا فيمن قتل إخواننا، فانصرف منهم طوائف كثيرون، وكانوا

أربعة آلاف، فلم يبق منهم إلا ألف أو أقل مع عبد الله بن وهب الراسبي، فرجعوا على علي وكان على ميمنتهم زيد بن حصن الطائي السنبسي، وعلى الميسرة شريح بن أوفى، وعلى خيالتهم حمزة بن سنان، وعلى الرجالة حرقوص بن زهير السعدي، فوقفوا مقاتلين لعلي وأصحابه.

3- نشوب القتال:

وزحف الخوارج إلى علي، وقدم علي بين يديه الخيل، وقدم منهم الرماة وصفّ الرجالة وراء الخيالة، وقال لأصحابه: كفوا عنهم حتى يبدؤوكم، وأقبلت الخوارج يقولون: لا حكم إلا لله، الرواح الرواح إلى الجنة، فحملوا على الخيالة الذين قدمهم علي، ففرقوهم حتى أخذت طائفة من الخيالة إلى الميمنة، وأخرى إلى الميسرة، فاستقبلتهم الرماة بالنبل، فرموا وجوههم، وعطفت عليهم الخيالة من الميمنة والميسرة، ونهض إليهم الرجال بالرماح والسيوف، فأناموا الخوارج، فصاروا صرعى تحت سنابك الخيول، وقتل أمراؤهم: عبد الله بن وهب، وحرقوص بن زهير، وشريح بن أوفى، وعبد الله بن سخيرة السلمى، وقال أبو أيوب: وطعنت رجلاً من الخوارج بالرمح، فأنفذته من ظهره وقتلت له: أبشريا عدو الله بالنار، فقال: ستعلم أينا أولى بها صلياً.

وقد اعتزل كثير من الخوارج القتال لكلمة سمعوها من عبد الله بن وهب الراسبي، كانت تدل عندهم على ضعف الاستبصار والوهن في اليقين، وهذه الكلمة قالها عندما ضرب علي رضي الله عنه رجلاً من الخوارج بسيفه، فقال الخارجي: حبذا الروحة إلى الجنة، فقال عبد الله بن وهب: ما أدري إلى الجنة أم إلى النار، فقال رجل من بني سعد وهو فروة بن نوفل الأشجعي: إنما حضرت اغتاراً بهذا وأراه قد شك؟ فانعزل بجماعة من أصحابه، ومال ألف إلى أبي أيوب الأنصاري، وجعل الناس يتسللون.

وقد كانت معركة حاسمة وقصيرة أخذت وقتاً من اليوم التاسع من شهر صفر

من عام ثمان وثلاثين للهجرة 9/2/38 هـ. وأسفرت هذه المعركة الخاطفة عن عدد كبير من القتلى في صفوف الخوارج، وكان الحال على عكس ذلك تمامًا في جيش أمير المؤمنين علي رضي الله عنه، فقتل أصحاب علي فيما رواه مسلم في صحيحه، وعن زيد بن وهب: رجلان فقط.

وفي رواية بسند حسن قال: وقتل من أصحاب علي اثنا عشر أو ثلاثة عشر، وجاء في رواية صحيحة: أن أبا مجلز قال: ولم يقتل من المسلمين - يقصد جيش علي - إلا تسعة رهط، فإن شئت فاذهب إلى أبي برزة، فاسأله فإنه قد شهد ذلك. وأما قتلى الخوارج، فتذكر الروايات أنهم أصيبوا جميعًا، ويذكر المسعودي أن عددًا يسيرًا لا يتجاوز العشرة فروا بعد الهزيمة الساحقة.

4- ذو الثدية أو المخدج وأثر مقتله على جيش علي رضي الله عنه:

ظهرت روايات مختلفة في تحديد شخصية ذي الثدية، وهذه الروايات منها ما هو ضعيف الإسناد ومنها ما هو قوي، وقد جاء في الأحاديث النبوية أوصاف ذو الثدية، فمن ذلك: أنه أسود البشرة، وفي رواية: حبشي، وأنه مخدج اليد، أي: ناقص اليد، ويده صغيرة مجتمعة، فهي من المنكب إلى العضد فقط، أي: بدون ذراع، وفي نهاية عضده مثل حلمة الثدي وعليها شعيرات بيض، وعضده ليست ثابتة، كأنها بلا عظم؛ إذ إنها «تدردر» أي: تتحرك تذهب وتجيء، أما مخدج اليد، أو مودون اليد أو مثدون اليد، فكلها بمعنى واحد؛ وهو ناقص اليد.

وأما اسمه فقد أخطأ من قال: إن ذا الثدية هو حرقوص بن زهير السعدي، فحرقوص رجل مشهور كان له دور في الفتوح الإسلامية، ثم خرج على عثمان رضي الله عنه، وقد فرّ إثر معركة الجمل الصغرى التي قتل فيها الزبير وطلحة رضي الله عنهما قتلة عثمان بالبصرة، وقد صار حرقوص من زعماء الخوارج

إلا أنه قد ورد في رواية: أن اسمه «حرقوس»؛ أما أبوه فلا يعرفه أحد، وجاء في رواية أن اسمه مالك، وذلك أنهم بحثوا عنه فلما وجدوه قال علي: الله أكبر، لا يأتيكم أحد يخبركم من أبوه؟ فجعل الناس يقولون: هذا مالك هذا مالك، فقال علي: ابن من؟ فلم يعرف أحد أبوه.

وقد ورد في رواية صححها الطبري: أن اسمه نافع ذو الشدية كما قد جاء عند ابن أبي شيبة وأبي داود، إلا أن طريقيهما واحد، فبعدما جاء في المصادر الثلاثة رواية واحدة ذات طريق واحد، كان علي رضي الله عنه يتحدث عن الخوارج منذ ابتداء بدعتهم، وكثيراً ما كان يتعرض إلى ذكر ذي الشدية، وأنه علامة هؤلاء، ويسرد أوصافه.

وبعد نهاية المعركة الحاسمة أمر علي رضي الله عنه أصحابه بالبحث عن جثة المخدج، لأن وجودها من الأدلة على أن علياً رضي الله عنه على حق وصواب، وبعد مدة من البحث مرت علي وعلي وأصحابه وجد أمير المؤمنين عليّ جماعة مكومة بعضها على بعض عند شفير النهر فقال: أخرجوهم، فإذا المخدج تحتهم جميعاً مما يلي الأرض، فكبر علي ثم قال: صدق الله، وبلغ رسوله، وسجد سجود الشكر، وكبر الناس حين رأوه واستبشروا.

5- معاملة أمير المؤمنين علي للخوارج:

عامل أمير المؤمنين علي رضي الله عنه الخوارج قبل الحرب وبعده معاملة المسلمين؛ فما أن انتهت المعركة حتى أصدر أمره في جنده بأن لا يتبع مدبر، أو يذف على جريح، أو يمثل بقتيل، يقول شقيق بن سلمة المعروف بأبي وائل - أحد فقهاء التابعين وممن شهد مع علي حروبه -: لم يسب علي يوم الجمل

ولا يوم النهروان، وقد حمل رثة أهل النهر إلى الكوفة وقال: من عرف شيئاً فليأخذه، فجعل الناس يأخذون حتى بقيت قدر فجاء رجل وأخذها، وهذه الرواية لها طرق عدة، ولم يقسم بين جنده إلا ما حمل عليه الخوارج في الحرب من السلاح والكراع فقط.

وأمر المؤمنين علي رضي الله عنه لم يكفر الخوارج، إذ قبل الحرب حاول إرجاعهم إلى الجماعة وقد رجع كثير منهم، ووعظهم وخوفهم القتال، يقول ابن قدامة: وإنما كان كذلك؛ لأن المقصود كفهم ودفعت شرهم لا قتلهم، فإن أمكن لمجرد القول كان أولى من القتال، لما فيه من الضرر بالفريقين، وهذا يدل على أن الخوارج فرقة من المسلمين، كما قال بذلك كثير من العلماء.

وكان سعد بن أبي وقاص رضي الله عنه يسميهم الفاسقين، فعن مصعب بن سعد قال: سألت أبي عن هذه الآية: ﴿ قُلْ هَلْ نُنَبِّئُكُمْ بِالْأَخْسَرِينَ أَعْمَالًا * الَّذِينَ ضَلَّ سَعِيَّهُمْ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَهُمْ يَحْسَبُونَ أَنَّهُمْ يُحْسِنُونَ صُنْعًا ﴾ [الكهف: 103 - 104] أهم الحرورية؟ قال: لا، هم أهل الكتاب اليهود والنصارى، أما اليهود فكذبوا بمحمد صلى الله عليه وسلم، وأما النصارى فكفروا بالجنة، وقالوا: ليس فيها طعام ولا شراب، ولكن الحرورية... ﴿ وَمَا يُضِلُّ بِهِ إِلَّا الْفَاسِقِينَ * الَّذِينَ يَنْقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَنْ يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ ﴾ [البقرة: 26 - 27]. وكان سعد يسميهم الفاسقين، وفي رواية عن سعد رضي الله عنه أنه قال لما سئل عنهم: هم قوم زاغوا فأزاع الله قلوبهم.

وقد سئل علي رضي الله عنه: أكفارهم؟ قال: من الكفر فروا، فقيل: منافقون؟ قال: المنافقون لا يذكرون الله إلا قليلاً، قيل: فما هم؟ قال: قوم بغوا علينا فقاتلناهم، وفي رواية: قوم بغوا علينا فنصرنا عليهم، وفي رواية: قوم أصابتهم فتنة فعموا فيها وصموا، كما أنه رضي الله عنه وجه نصيحة لجيشه وللأمة الإسلامية من بعده فقال: إن خالفوا إماماً عادلاً فقاتلوهم، وإن

خالفوا إمامًا جائرًا فلا تقاتلوهم فإن لهم مقالًا .

والملاحظ في قتال أمير المؤمنين علي رضي الله عنه للخوارج وقتاله في الجمل وصفين: أن عليًا رضي الله عنه ندم وحزن على قتاله في وقعة الجمل وصفين، أما في قتاله مع الخوارج فكان يظهر الفرح والسرور لقتالهم، قال ابن تيمية: فإن النص والإجماع فرق بين هذا وهذا، فإنه قاتل الخوارج بنص رسول الله صلى الله عليه وسلم، وفرح بذلك، ولم ينازعه فيه أحد من الصحابة، وأما القتال يوم صفين فقد ظهر منه من كراهته والندم عليه ما ظهر.

المصدر:

١ . الدكتور علي محمد الصلابي، أسمى المطالب في سيرة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب، ص 730

الكلمات المفتاحية:

#الخوارج #معركة-النهروان

تنويه: نشر مقال أو مقتطف معين لكاتب معين لا يعنى بالضرورة تركية الكاتب أو تبني جميع أفكاره.